المختار. خافت ولكزت الفرس باتجاه مغارة قبر احد الجدود (كما تسمّيه)، وأحست، حين اقتربت منه وابتعدت من الفلاح، بالطمأنينة.

تدلّت من ثقب باب المغارة ونزلت. هالتها الرائحة القذرة؛ فلقد استخدمها الرعاة العرب لقضاء حاجاتهم. جاءت عدة مرّات قبل هذه الزورة، وفي كل مرة استفدحت عدم وجود الرأس مع بقية العظام، وتساءلت عمّن أخذه. وحفرت الارض قليلاً لعلها تعثر على عملة ما، فلا بد ان يكون الذين دفنوه قد وضعوا بعض النقود.

لم تعثر على شيء، فخرجت من المغارة وهبّت عليها من جديد، حارة لاهبة، ريح الخماسين. وامتطت سالومي راجعة الى برج عذرا. في الطريق رأت فاقد ثنيّتيه ومعه اثنان. في اليوم التالي وجدت دينا قتيلة.

قال جوزيف: «ليس هناك من شيء هام أرويه. يقول الطبيب انهم كانوا على الأقل اثنين. ويبدو انها دافعت عن نفسها بعنف، لأن أظافرها كلها تكسّرت، وعليها دم، وتحتها نتف جلد، كما كانت بقايا جلد بين أسنانها. ولقد عدّوا في جسدها سبعاً وعشرين طعنة خنجر لم تسبب أي منها وفاة سريعة. كان أنفها محطماً، وانتزع منها شعر بجلد. هذا كل شيء، لولا انهم سرقوا أيضاً سالومي».

ماتت، اذاً، دفاعاً عن الفرس، خشية ان يسرقها اللصوص العرب ؟

عجيب! كوستلر الذي ادعى، في شبابه، بالشيوعية والنضال من اجل الديمقراطية وضد النازية يكتب ذلك ؟ هل بوسع القارىء ان يروي، أو يتصور، ان النازيين كتبوا مثل هذه الأشياء عن اليهود ؟ لقد قرأت كثيراً من الأدب النازي والفاشي، فلم أجد فيه ما وجدته في هذه الرواية، وفي آثار أخرى يهودية، من بله.

بعد حادثة دينا وسالومي، أخذ جوزيف يطالب بالانضمام الى الارغون كي يكون ارهابياً؛ لكنهم لم يقبلوا به، لأن حقده لم يكن كافياً. وعيّنوه مذيعاً في الاذاعة السرية باللغة الانكليزية، لأنها لغته الأصلية.

جيء بالشرطة التي استخدمت الكلاب، فتبعت الأثر حتى وصلت الى بيت المختار؛ لكن ذلك لا يثبت شيئاً، لأن الناس في القرى القريبة يؤمّونه جميعاً كل يوم. وقرر أصدقاء جوزيف ان ينتقموا، لكن حين يتأكدون من هو القاتل وليس جزافاً كما هي عادة العرب!

ذات مساء طُرق باب المختار، ودخل اثنان جاءا في سيارة، فاقتحما الباب واستيقظ الخادم وبعده المختار. قال احدهما: «أنت مطلوب يا مختار.

« ـ من يطلبني ؟

« ـ سألا الخادم الخروج، وقالا للمختار بصوت خفيض: فوزي!

« لبس وخرج معهما، فقاداه الى المكان ذاته الذي قتلت فيه دينا، وأخذا منه خنجره فطعناه به حتى الموت، بعد ان ضربه احدهما بالمسدس الى ان سقط أرضاً... كانا متأكدين انه ليس القاتل ومن انه يعرف من هو، فاقتصّوا منه وقتلوه بالطريقة عينها وبوسيلة التعذيب ذاتها. لكن الفرق بينه وبين دينا انه لم يقاوم.

«غضبت الطابغة غضباً شديداً لموت المختار من اجل امرأة جديرة بالقتل، لأنها كانت تلبس أكماماً قصيرة وبنطالاً قصيراً دون حشمة...». هكذا!

«وهاجم أهل الطابغة برج عذرا لكن حرسها ردّهم بسهولة. وبعد ذلك استأنفا حياة الجار والجار.

قال في الرواية، وهنا النقطة التي تستحق أكثر من سواها التأمل، على لسان بومان، وهو أكثر الشخوص تمثيلاً لأفكار الارغون: «لا بد لجنودنا من نظام. ولا نظام من غير طقوس... انه مناف للعقل ان يتعرض رجل الى نيران رشاش، لأن رجلاً آخر أمره بذلك؛ مع هذا، فالجيش مبنيّ على مبدأ لامنطقي بأن ذلك هو الواجب. ولذلك كان لكل جيش تقليده وخرافته. وهو ذا الدور الذي تلعبه التوراة والمكابيون في تقليدنا وخرافتنا، أأعجبك ذلك أو أعجبني أم لم يعجبنا، سيان».